﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بـين الوعيد بالعذاب والـغـضـب، وبين ممارسات اليهود المنحرفة

إنَّ في تَعلُّق هذه الآية بما قَبلها وجوهًا، الأوَّل: أنَّه تعالى لما وصَفَ اليهودَ بالخيانة في أموال النَّاس، ومِن المعلوم أنَّ الخيانةَ في أموال النَّاس لا تتماشى إلَّا بالأيمانِ الكاذبة، لا جَرَمَ ذَكَر عقيبَ تلك الآية هذه الآيةَ المشتملةَ على وعيدِ مَنْ يُقْدِم على الأيمان الكاذبة. والثَّاني: أنَّه تعالى لمَّا حَكَى عنهم أنَّهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ولا شكَّ أنَّ عهد الله على كُلِّ مُكلَّف ألَّا يكذبَ على الله ولا يخونَ في دينه، لا جرمَ ذَكَرَ هذا الوعيد عقيبَ ذلك. والثَّالث: أنَّه تعالى ذَكَرَ في الآية السَّابقة خيانتَهم في أموال النَّاس، ثُمَّ ذَكَر في هذه الآية خيانتَهُم في عهدِ الله وخيانتَهم في تعظيم أسمائه، حين يحلِفُون بها كَذِبًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡتَرُونَ﴾: قَوْلُهُم: شَرَيْتُ الشَّيءَ وَاشْتَرَيْتُهُ، إِذَا أَخَذتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِه. وَرُبَّمَا قَالُوا: شَرَيْتُ: إِذَا بِعتَ. قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى المُمَاثَلَةِ قَولُهُم: (هَذَا شَرْوَى هَذَا)، أَيْ مِثْلُهُ. و(فُلَانٌ شَرْوَى فُلَانٍ)، ومعنى ﴿يَشۡتَرُونَ﴾ في الآية: أي: يستبدِلُون ويأخُذون[2].

(1) ومِنَ العلماءِ مَنْ قال: هذه الآيةُ ابتداءُ كلامٍ مُستقلٍّ بنفسه، في المنع عن الأيمان الكاذبة، وذلك لأنَّ اللَّفظ عامٌّ، والرِّوايات الكثيرة دلَّت على أنَّها إنَّما نزلت في أقوام أقدموا على الأَيْمان الكاذبة، وإذا كان كذلك وجبَ اعتقادُ كون هذا الوعيد عامًّا، في حقِّ كلِّ مَن يفعل هذا الفِعلَ، وأنَّه غير مخصوصٍ باليهودِ، ينظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/265.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرى)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/51.

2) ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: العَهدُ كُلُّ مَا عُوهِدَ اللهُ عَلَيهِ، وكلُّ مَا بَينَ العبادِ مِنَ المواثِيقِ، فَهُوَ عَهدٌ. وَكَذَلِكَ كلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ ونَهى عَنْهُ[1].

3) ﴿ثَمَنًا﴾: الثَّمَنُ: مَا تَسْتَحِقُّ بِهِ الشَّيءَ، والثَّمَنُ: ثَمَنُ البَيعِ، وثمَنُ كُلِّ شَيءٍ قِيمَتُه، وَشَيْءٌ ثَمِينٌ، أَي: مرتفعُ الثَّمَن، و﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: شيئًا يسيرًا مِن حُطَام الدُّنيا[2].

4) ﴿لَا خَلَٰقَ﴾: الخَلاقُ: النَّصيبُ مِنَ الحَظِّ الصَّالح. وهذا رَجُلٌ ليس له خَلاقٌ، أي: ليسَ له رَغبةٌ في الخير، فَالمَعْنَى لَا نَصِيبَ لَهُم فِي خَيرِ الآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا[3].

5) ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: المَقْصُودُ بَيَانُ شِدَّةِ سُخْطِ اللَّهِ عَلَيهِم؛ لأَنَّ مَنْ مَنَعَ غَيْرَهُ كَلَامَهُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِسُخطِ اللَّهِ عَلَيْهِ[4].

6) ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: يُقَالُ الطَّهَارَةُ زَكَاةُ المَالِ، وسُمِّيَتْ زَكَاةً لِأَنَّهَا طَهَارَةٌ. قَالُوا: وَحُجَّةُ ذَلِكَ قَولُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103]. وَالأَصْلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ رَاجِعٌ إِلَى هَذَينِ المَعْنَيَيْنِ، وهُمَا النَّمَاءُ والطَّهارة. ومعنى ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: لَا يُثْنِي عَلَيهِم أَو لَا يُنَمِّي أَعمَالَهُم، أَوْ لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ[5].

7) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: شديدُ الألمِ والإيجاعِ، يخلصُ ألمُهُ إلى قلوبهم على ما فعلُوه من المعاصي[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تشديد الوعيد بالعذاب الشّديد، لناكثي العهود

إنَّ اللهَ تَوَعّدَ النَّاكثين للعهد، المُخلفين للوعدِ، بالحرمان مِنَ النَّعيم، وبالعذاب الأليم، وبأنَّهم يكونُون في غضبِ اللهِ؛ بحيثُ لا تُرجى لهم رحمةٌ، ولا يسمعُون منه - تعالى - كلمةَ عفوٍ ولا مغفرةٍ، ولم يتوعّدِ اللهُ تعالى مُرتكبي الكبائر مِن الزُّناة وشاربي الخَمر، ولاعبي المَيسِر، وعاقّي الوالدين، بما توعّدَ به ناكثي العهودِ، وخائني

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(2) المصدر نفسه: (ثمن).
(3) الخليل، العين: (خلق)، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/266.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/267.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى)، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/106.

الأماناتِ؛ لأنَّ مفاسدَهُما أعظمُ من جميع المفاسدِ الَّتي لأجلها حُرِّمت تلك الجَرائم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ دُونَ (يَسْتَبْدِلُونَ):

حقيقةُ الاشتِرَاء: الاستبدالُ، وكُلُّ اشتراءٍ استبدالٌ، وليس كُلُّ استبدالٍ اشتراءً، ووضعُ الاشتراءِ موضعَ الاستبدال ههنا؛ لكونِه أدلَّ على الرَّغبة، وذلك أنَّ المشتريَ الشَّيءَ مُحتاجٌ إليه راغبٌ فيه، فهو أبلغُ مِن لفظ الأَصل مع ما فيه من حُسن التَّصرف في الكلام[2].

زُهْدُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الدِّينِ وَشِدَّةُ تَعَلُّقِهِمْ بِالدُّنْيَا

ويُضافُ إلى ذلك الإيماءُ إلى حِرصِهم الشَّديدِ على هذا السُّلوك النَّفعي؛ لأنَّ المُشتري عادةً تكون رغبتُه شديدة فيما يَشتري، ويزهدُ فيما يدفعُه، فاستعمال الاشتراءِ دالٌّ على زُهدهم في الدِّين، وحِرصِهم على الحياة الدُّنيا وزخارفِها، وهو يُشيرُ - أيضًا - إلى أنَّهم يجعلونَ القِيم والدِّين سلعةً تُباع وتُشترى.

والتَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَشْتَرُونَ﴾ دالٌّ على تَكرار هذا السُّلوك منهم، إلى حدِّ أنَّه صارَ طَبْعًا لهم.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

تَهْدِيدُ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِمَتَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ

ابتدأت الآيةُ بتأكيد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّة الجملة للتَّأكيد على ثبوت ما سيُذكر في الآية؛ وقد عُبِّرَ عن نَقْضِ العَهْدِ مع الله تعالى (بالشِّراء) على طريق الاستعارة التَّصريحيَّةِ، واستُعير لفظُ الشِّراء للاستبدال؛ أي: أنّهم يستبدلون بما عاهدُوا عليه وبما حلَفُوا به من الأيمان متاعَ الدُّنيا، وأُريدَ بذلك تحريفُهم للتَّوراة وتبديلُ ما ورد فيها[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1284، والهرري، حدائق الروح والريحان: 4/383.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 2/176.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/543.

وَالثَّمَنُ القَلِيلُ: مَتَاعُ الدُّنيَا مِنَ الرّشوة وحبِّ الرِّئاسَةِ وَنَحوِ ذَلِكَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا فِي أَهلِ الكِتَابِ؛ لِمَا احْتَفَّ بِهَا مِنَ الآيَاتِ الَّتِي قَبلَهَا وَالآيَاتِ الَّتِي بعدَها[1].

دِلَالَةُ (الْبَاءِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

خُـرُوفُ الْمَعَانِي لَـهَـا دِلَالَاتٌ خَـاصَّـةٌ تُضْفِي مَعَانِيَ مَقْصُودَةً عَلَى الْأَلْفَاظِ

ألمحَ ابنُ كثير رحمه الله إلى أنَّ هذه (الباء) جاءت بمعنى المقابلة والعِوض، وهي الدَّاخلة على المتروك[2]، وعبَّر عن ذلك بلفظة (الأَثْمَان)[3]، قَالَ الفَرَّاءُ فِي قَولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 41]: "كُلُّ مَا كَانَ فِي القُرْآنِ مِنْ هَذَا الَّذِي قَدْ نُصب فِيهِ الثَّمَنُ، وأُدخلت البَاءُ فِي المَبِيع أَو المُشتَرَى؛ فإِنَّ ذَلِكَ أَكثر مَا يأْتي فِي الشَّيئين لَا يَكُونَانِ ثَمَنًا مَعلُومًا، مِثْلَ الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ، فَمِنْ ذَلِكَ: اشْتَرَيتُ ثَوْبًا بِكِسَاءٍ، أَيُّهما شِئتَ تَجْعَلُهُ ثَمَنًا لِصَاحِبِهِ؛ لأَنَّه لَيسَ مِنَ الأَثمان، وَمَا كَانَ لَيسَ مِنَ الأَثمان مِثْل الرَّقِيق والدُّور وجميعِ العُرُوضِ؛ فَهُوَ عَلَى هَذَا، فَإِذَا جِئتَ إِلَى الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ، وَضَعتَ (البَاءَ) فِي الثَّمَن، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ﴾؛ لأَنَّ الدَّرَاهِمَ ثَمَنٌ أَبدًا، و(البَاءُ) إِنَّمَا تَدخُلُ فِي الأَثمانِ، وكذلك قوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 199]، واشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ والعَذابَ بِالمَغفِرَةِ؛ فأَدْخِلِ (الباءَ) فِي أَيِّ هَذَيْنِ شِئْتَ حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ؛ فَإِنَّكَ تُدْخِل (البَاءَ) فِيهِنَّ مَعَ العُرُوضِ، فَإِذَا اشْتَرَيتَ أَحدَ هَذَيْنِ - يَعنِي الدَّنانيرَ وَالدَّرَاهِمَ بِصَاحِبِهِ - أَدخلت (البَاءَ) فِي أَيِّهما شِئتَ؛ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُمَا فِي هَذَا المَوضِعِ مَبِيعٌ وثَمَنٌ"[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/442.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/53.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ثمن).

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْعَهْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

دَعْـــوَةُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ إِلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى العَهدِ المأخوذِ على أنبيائهم وأتباعهم بالإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ، وهو الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81] الآية.

وفي التَّعبير بالعَهْدِ دعوةٌ إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ العهدَ يُعبَّرُ به عنِ التَّوراة والإنْجيل، وفيهما البشارةُ بالنَّبيِّ ﷺ.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

تَـكْـثِـيرُ الْـمَـعَـانِي الْـقُـرْآنِـيَّـةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُحْتَمَلَةِ

جيءَ بالإضَافَةُ في قوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا لِلفَاعِلِ وَإِمَّا لِلمَفعُولِ؛ أَي: بِعَهدِ اللهِ إيَّاهُ من الإيمان بالرَّسُولِ الَّذي بُعِثَ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُم، وَبِأَيمَانِهِمُ الَّتِي حَلَفُوهَا لَنُؤمِنَنَّ بِهِ وَلَنَنصُرَنَّهُ، أَو بما عُوهِدَ عليه اللهُ[1]، وهما معنيانِ متكامِلَانِ لا تعارُضَ بينَهُمَا، وفي حمل اللَّفظ عليهمَا معًا إثراءٌ للنَّصِّ القرآنيِّ.

سِرُّ وَصْفِ الثَّمَنِ بِالْقِلَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

ذَمُّ اللهِ تَعَالَى مَنْ تَوَصَّلَ إِلَى نَفْعٍ عَاجِلٍ بِإِضَاعَةِ عَهْدِهِ

الأَيمَانُ هِيَ الحَلِفُ الَّتِي يُؤَكِّدُ بِهَا الإِنسَانُ خَبَرَهُ مِنْ وَعدٍ أَو وَعِيدٍ، أَو إِنكَارٍ أَو إِثبَاتٍ[2]، ولا يُرادُ بـ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ القِلَّةُ المُعتبرةُ بإضافة بعض الأثمانِ إلى بعض، بل ذلك باعتبارِ منافع الدُّنيا بمنافعِ الآخرة؛ فذمَّ اللهُ تعالى مَن توصَّل إلى نَفْعٍ عاجلٍ بإضاعةِ عهدِ اللهِ.

ولكون الوفاءِ سببًا لعامَّة الصَّلاح[3]، ولِأَنَّ كُلَّ ثَمَنٍ لَهَا لَا يَكُونُ إِلَّا قَلِيلًا؛ فَصَارَ نَفيُ الثَّمَنِ القَلِيلِ نَفيًا لِكُلِّ ثَمَنٍ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/266.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 2/659.
(4) الزركشي، البرهان: 3/397.

فَائِدَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾:

انْحِطَاطُ مَنْزِلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الشَّرِّ وَالْفَسَادِ

تعريفُ المسنَدِ إليه باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فيه إشعارٌ ببُعدِ أَهلِ الكتاب وانحطاطِ مَنزلتهم في الشَّر والفَسَاد والخُسران[1]، وهمُ الَّذين اشتَرَوا بعهدِ اللّه تعالى وأيمانهم ثمنًا قليلًا[2].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِنَفْيِ الْخَلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾:

النَّاسُ فِي الْآخِرَةِ فَرِيقَانِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ

قول اللّه تعالى: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ معناه: لَا نَصِيبَ لَهُم مِنَ الخَيرِ، فقد نَفى نَصيب الخَيرِ عَنهُم[3].

وجاء التَّعبيرُ القُرآنيُّ بنفي الخَلاقِ عنهم للدّلالةِ على أنّ تعاطيَ هذا الفِعل جُرمٌ كبيرٌ ليس لفاعله حظٌّ من الخير في الآخرة، وإذا انتَفَى حظُّه من الخَير ثبتَ له الشَّرُ والعِقابُ؛ لأنَّ النَّاسَ في الآخرةِ فريقانِ: فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير، فإذا انتفى الخيرُ والجزاءُ الحسنُ لهم؛ ثبتَ لهم بالضَّرورةِ الشرُّ وعذاب النَّار.

تَعَدُّدُ الْكِنَايَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

عِظَمُ جَزَاءِ مَنِ اشْتَرَى بِعَهْدِ اللهِ تَعَالَى ثَمَنًا قَلِيلًا

في هذه الآية ذكرُ أربعةِ أنواعٍ من الجزاءِ تنالُ الذين اشتَرَوا بعهدِ اللّه وأيمانِهم ثمنًا قليلًا:

أوَّلها: أنَّ اللّه لَا يُكلّمُهُم، وهو كنايةٌ عن سخطِ اللّه تعالى عليهم وعدم محبَّتِه لهم؛ لأنَّ المُحبَّ مُقبِلٌ على حَبيبِه مُتحدِّثًا إليه، ومَن فَقَدَ مَحبَّةَ اللّه فَقَد فَقَدَ مَعنى الوجودِ - كما يفيده حذفُ المتعلَّق من التَّعميم -، أو أنَّ المعنَى: لا يُكلِّمهم اللّه بما يسرُّهم[4]، وجاز أن يكونَ

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/481.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/440.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(4) القنوجي، فتح البيان: 2/270.

إسماعُ اللهِ ﷻ أولياءَهُ كلامَهُ بغير سفير، خصوصيَّةً يَخُصُّ بها أولياءَه، فهو لا يُكلِّم هؤلاء أَصْلًا، وتكونُ محاسبتُهُم بكلامِ الملائكة[1].

وثانيها: أنَّه لَا يَنظرُ إليهم يوم القِيامةِ ولا يرعاهم؛ لأنَّهم إذا فَقَدُوا النَّظرَ إليهم منه سبحانه؛ فَقَدُوا كلاءَتَه وحِمايتَه، فعدمُ النَّظر إليهم كنايةٌ عن عدم حمايته لهم من العِقابِ، وأنَّه لا يُنْزِلُ بهم نعيمًا[2].

وثالثُها: أنَّه لَا يُزكِّيهم، وذلك كنايةٌ عن عدم رضَاه سبحانه؛ لأنَّ مَن يرضَى عن شَخصٍ يُزكِّيه ويُطريه ويُثني عليه.

ورابِعُهَا: وهو نتيجةُ ما سبقَ من بُغْضِ اللهِ تعالى لهم وسَخَطِهِ عليهم، ومَنعِ حمايته؛ هو أنَّ لهم عذابًا مُؤلمًا[3].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

كُلَّمَا زَادَ الْجُرْمُ؛ قَـوِيَـتْ مَـعَـهُ الْمُؤَاخَذَةُ

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: 174]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

فقد زادَ في آل عمران: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ بخلاف البقرة، وفي ذلك ثلاثُ نكاتٍ:

أولاها: أنَّ آيةَ البقرة في الَّذين يكتِمُون ما أنزلَ اللهُ ويشترُون بكتمانِهم هذا ثمنًا قليلًا، وأمَّا آيةُ آل عمران؛ فليست في هذا الصِّنْفِ، بل في الَّذين يشتَرُون بعهدِ اللهِ وأَيْمَانِهم ثَمنًا قليلًا، وهو

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 5/373.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/152.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/376، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1285، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/290.

ذنبٌ أكبرُ وأعظمُ من مُجرَّد الكتمان؛ إذ هُم لم يكتُمُوا الحقَّ فحسب؛ بل غيَّروه وأقسَمُوا على ذلك، واشتَرَوا به ثمنًا قَليلًا؛ فتجاوَزُوا الكتمان إلى تقويةِ الباطلِ، فلمَّا زادوا في الذَّنْبِ؛ زادَهم اللهُ عُقوبةً، فقال: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾.

وثانيهَا: أنَّ السِّياق في آل عمران في الوفاءِ بعهد الله، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وليس الأمرُ كذلك في البقرة، فَقَدْ سَبق هذه الآيةَ الكلامُ على المَيتةَ والدّمَ ونحوها، قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 173].

فلمَّا كان المقامُ في آل عمران هو الكلامَ على عهدِ الله تعالى؛ ناسبَ ذلك تشديدَ العُقوبةِ على مُضَيِّعِيهِ أكثر ممَّا في البقرة؛ لأنَّ السِّياق يقتضيه، فما أَجَلَّ هذا الكلامَ وأعظمَه![1].

وثالثُهَا: أنَّ في سورةِ البقرةِ نَفْيَ الكلام يومَ القيامة؛ لأنَّ الكلام فيها عنِ الكِتمان، وهو عدم إظهار كلام الله تعالى المُنَزَّل في التَّوراة، فناسبَه حرمانُ اللهِ تعالى لهم مِن الكلام يومَ القيامة؛ أمَّا آية سورة آل عمران؛ فهي في الوفاءِ بالعهد، وأبرزُ ما في المتعاهِدين أن ينظرَ كلٌّ منهما إلى الآخر نظرةَ احترامٍ وتقدير، فلمَّا خالفُوا ذلك ولم يحترِمُوا العَهدَ؛ طلبًا للحصولِ على مكانةٍ دنيويَّةٍ بالاستعلاءِ على الآخرين؛ ناسبَهُ الاستهانةُ بهم، والسّخطُ عليهم بعدم نَظَر الله لَهم يوم القِيامة جزاءً وفاقًا.

دِلَالَةُ مَجِيءِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمًا مَوْصُولًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

مَـــن شـابَـهَ الْمُـخَـالِـفِـينَ فِي صِفَاتِهِمْ؛ فَهُوَ لَاحِـقٌ بِـهِـمْ فِي جَزَائِهِمْ

ورد الوعيدُ السَّابقُ المتضمِّنُ أنواعًا من الوعيدِ عَقِبَ مجيءِ المسند إليه اسمًا موصولًا: إيذانًا بأنَّ مَن شابَهَهُم في هذه الصِّفات فهو لاحِقٌ بهم، حتَّى ظنَّ بعضُ السَّلف أنَّ هذه الآية نزلت فيمن حَلَف يمينًا باطلةً[2]، ففي تعريف المسند إليه بالموصوليَّةِ إيماءٌ إلى علَّةِ بناءِ الخبرِ.

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 325، والسامرائي، فاضل، التعبير القرآني، ص: 123 - 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/290.

فَائِدَةُ إِيرَادِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

لَا ثَنَاءَ وَلَا طَهَارَةَ لِمَنْ يَشْتَرِي بِعَهْدِ اللهِ تَعَالَى ثَمَنًا قَلِيلًا

وَرَدَ قولُه: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بعد قوله ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ للإشعار بأنَّ هؤلاء المشترين بعهدِ الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا يزكّيهم الله في الدُّنيا، بل يُظهرُ عُوارَهم ويفضَحُهم فيها حتّى يعرفَهُم العبادُ، ويعرفوا سقوطَ عدالتهم وزوالَ زَكَائِهم، وكذا لا يزكّيهم اللهُ يومَ القيامة، فلا يقبلُ منهم صرفًا ولا عدلًا[1].

ويُضافُ إلى ذلك أنَّ مادةَ (التَّزكية) تَدُورُ حول الطَّهارةِ والثَّناءِ، فلا ذِكرَ لهم على جهةِ الثَّناءِ، ولا تزكيةَ لهم بتطهيرِهم مِن الذُّنوب، بسبب ما قدَّمتْ أيديهم، ولبئس ما قدَّمت من خِيانةٍ في الدِّين، وخِيانةٍ في المالِ عندَ بعضِهم.

دِلَالَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

تَأْكِيدُ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

الجملة في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، ووردت اسميَّةً تأكيدًا لمضمونِ الخبرِ، وفيها تقديمٌ لمتعلّق الخبر؛ لإرادة القصرِ، أي: أنَّ المذكورينَ مخصوصونَ بالعذابِ الأليمِ، وهو قصرٌ غيرُ حقيقيٍّ؛ وإنَّما خرج مخرج التَّهويل والتَّعظيم لعذاب هؤلاءِ، حيث إنَّ عذاب غيرهم بالنِّسبة لهم كَلَا عذابٍ، وفيه دِلالةٌ على أنَّ عذابَهم مُستحَقٌّ لهم بِسبب ما ارتكَبُوه من جرائمَ وقبائحَ.

وجاء وصف العذاب بصيغة (فَعِيل) بمعنى: مُفْعِل، أي: مُؤلِم؛ للدَّلالة على المبالغة في الصِّفة[2]، ووردَ نكرةً؛ لتَذْهَبَ النَّفسُ فيه كلَّ مَذهبٍ؛ فلا يَعلَمُ قَدرَ شدَّته وفظاعَتِه إلَّا اللهُ تعالى.

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/446.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/460، والدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/481.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

شَرَى واشْتَرَى:

النَّاظر في كتب اللُّغة لمادّة (شَرَى)، يجد أنَّها تدُّل على المُماثلة أخذًا وعطاءً، ويصدقُ ذلك على البَيع والشِّراء، فقد استُعمِل كلٌّ منهما مكانَ الآخر، لكنَّ أسلوبَ القرآن الكريم ميَّزَ بين دلالةِ الفعلين، فجعل الفِعلَ (شَرَى) في معنى باع الشَّيءَ وأخذَ الثَّمن ماديًّا ومعنويًّا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20] الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 207] الآية، أمَّا الفِعل (اشْتَرَى) فجاء بمعنى الشِّراء، ومنه قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: 21].

إذن كلُّ فِعل مِن الفِعلين له دلالةٌ تُميِّزه عن الآخر.

الشِّراء والبَيع:

البَيْعُ: ضدّ الشِّرَاء، والبَيْع: الشِّرَاء أَيْضا، وَقد بَاعه الشَّيْء وَبَاعه مِنْهُ بيعا فيهمَا، قَالَ الشّاعر:

إِذَا الثُّرَيَّا طَلَعَتْ عِشاء *** فَبِعْ لِرَاعِي غَنَمٍ كِسَاءَ[1]

قيل: إنَّ كلَّ شِراءٍ بيعٌ، وليس كُلّ بيعٍ شِراءً؛ وذلك يختلفُ بالاعتقاد في الثَّمن والمُثَمِّن، ولهذا قيل: بعتُ واشتريتُ مِن الأضداد، فعلى هذا كأنَّه جَعَلَ الثَّمن مُصوَّرًا بصورة البيع؛ فلهذا قيل ذلك، وقد دلَّ على ذلك في موضع آخر: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 199][2].

العِوَض والثَّمن:

إنَّ الثَّمنَ يُستَعملُ في مَا كَانَ عينًا أَو وَرقًا، والعِوضُ يكون من ذَلِك وَمن غَيره، الْعِوَض مَا تُعُقِّبَ بِهِ الشَّيْء على جِهَة المثامنة؛ وَتقول: هَذَا الدِّرْهَم عوض من خاتمك، وَهَذَا الدِّينَار عوض من ثَوْبك، وَلِهَذَا يُسمى مَا يُعْطي الله الْأَطْفَال على إيلامه إيَّاهُم إعواضا[3]، تَقول: أَعْطَيت ثمن السّلعَة عينًا أَو وَرقًا، وَأعْطيت عوضهَا من ذَلِك أَو من العِوَض، وَإِذا قيل الثَّمنُ من غير العَين وَالوَرق، فَهُوَ التَّشْبِيه[4]،

(1) ابن سيده، المحكم: 2/262.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 5/482.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 237.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 238.

القَسَم والحَلِف واليَمِين:

النَّاظرُ في كتبِ اللُّغةِ لا يجدُ فرقًا بينها؛ بل يعُدُّون ذلك من قَبيل المترادف، مع أنَّه لا ترادفَ بينهما؛ فالمادَّة اللُّغويَّة للقَسَم تدلُّ على إفراز النَّصيب، وهذا يتأتَّى مِن دلالة القَسَم، حيثُ ينقسمُ النَّاس إلى مُصَدِّق ومُكَذِّب، بخلاف الحَلْف فهو من الحِلف والتَّحالف.والنَّاظر في آياتِ القرآن الكريم، يجدُ استعمالاتِ القَسَم تأتي للأَيْمَانِ الصَّادقةِ، بخلافِ الحَلِف فيأتي مع الأَيْمَان الكاذبةِ؛ يُؤكِّد ذلك ورودُ لفظ القَسَم في جانب المولى – سبحانه وتعالى – مثل قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: 1]، وقوله: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: 75]، إلى غير ذلك من الآياتِ، بخلافِ الحَلِف فإنَّه يَرِدُ في جانبِ المنافقين، قال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: 74]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ۝١٨﴾ [المجادلة: 18] إلى غير ذلك من الآياتِ.وممَّا يُؤكِّد أنَّ القَسَم هو اليمينُ الصَّادقُ، ما وردَ في سورةِ المائدة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة: 89]، فوصفَ اليمينَ إذا كان غيرَ صادقٍ ولم يتحقَّق بالحَلِف، وجعل له هذه الكفَّارات.

الكَلَام والتَّكليم:

إنَّ التَّكليمَ تَعليقُ الكَلَام بالمخاطَب، فَهُوَ أخصُّ من الكَلَام؛ وَذَلِكَ أَنَّه لَيسَ كُلُّ كَلَام خَطَابًا للغَير، فَإِذا جعلت الكَلَام في مَوضِع المصدر، فَلَا فرق بَينه وَبَين التَّكليم؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَولَك: كَلَّمتُهُ كلَامًا، وكلَّمتُه تكليمًا سَوَاء، وَأَمَّا قَولنَا: فلَانٌ يُخَاطب نَفسَه ويُكلِّم نَفسَه، فمجازٌ وتشبيهٌ بِمن يكلّمها سَوَاء، وَأَمَّا قَولنَا: فلَانٌ يُخَاطبُ نَفسَه ويُكلِّم نَفسَه، فمجازٌ وتشبيهٌ بِمن يُكلِّم غَيره؛ وَلِهَذَا قُلنَا: إنَّ القَدِيم لَو كَانَ مُتكلِّما في مَا لم يزل، لَكَانَ ذَلِك صفةَ نقصٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ تَكَلَّمَ وَلَا مُكَلَّم، وَكَانَ كَلَامه أَيضا يكونُ إخبارًا عَمَّا لم يُوجد فَيكون كذبًا[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 35.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»